الجنوب: الحقيقة والأوجه الغائبة

من يسمِّي يحيي، ومن يسمِّي يميت، وبين الحياة والموت عتبة خلق بهية تنبثق منها صور الوجود المحكومة بمنطق البداية والنهاية. لكن الجنوب اسم غير مهجوس بعبء الفناء، إذ الجهات لا تولد ولا تموت، بل تحترف البقاء—بين تذكير الاسم وتأنيث المسمَّى—شاهدة على تراكم الوجود وتنوُّعه من غير سوء. فالجنوب سرمدي الحضور، في التاريخ والجغرافيا، والوعي به هو وعي كوني عام يتخطَّى التزمين والتمكين، ولا تخصِّصه إلا شروط الاحترام المتبادل بين تواضع المدرِك وجلال المدرَك. ولأنه كذلك، نتَّخذه مبتدأ جديداً لخبر قديم يتناتج في دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي— التي تعلن اليوم، من القدس، عن ولادة **الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية.**

تولد **الجنوب** بمخاض عادي في أفق غير عادي، أفق كارثي تخيِّم عليه مقولة جنوبية الملامح مثيرة لذعر البشر تحذِّر من "زمن الوحوش الذي يصل احتضار العالم القديم بولادة العالم الجديد"—عالم الوحوش القديمة التي ترى في كل ولادة جديدة نذير موت لها، وفي حياة كل مولود جديد احتمال خطر على حياتها. ولعل هذه المقولة، التي لا تعوزها الوجاهة، صارت واقعاً في فلسطين، والجوار العربي، والجنوب العالمي. وفي هكذا حال، قد يحيل الساخرون مقولة "تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة" إلى لازمة غير لازمة لولا توسُّط الأمل في الإقامة الدائمة بين عقل الفرد وإرادة الجماعة. ومع أننا ننطلق من فلسطين، التي لا يكفُّ شعبها عن الجهر بـ"الإصابة بداء الأمل"، إلا أننا لا ننكر أن الأمل لحظة غير تاريخية (لأنه استيهام فردي) قبالة لحظة خيبة الأمل التاريخية (لأنه إدراك جماعي) لجسامة المسؤولية الملقاة على عاتق من ينذرون أنفسهم لإنقاذ التاريخ لا أنسنته. فإنقاذ التاريخ من انتصار الوحوش، كان ولن يزال، مهمة الإنسانية، أما أنسنة التاريخ بأدلجة الهزيمة، فقد كانت ولن تزال مهمة الإنسان الذي لم يتعلَّم بعد درس الجنوب في تدجين الوحوش لا استئلافها... فدرس الجنوب يجعل الصبر طريقاً إلى "الحقيقة والأوجه الغائبة" في ظل اعتلال مشروع التحرر وتعافي إرادة الحرية. ودرس الجنوب يعيد للحقيقة وجهها الغائب، ويستعيد من الأوجه الغائبة حقيقتها الحاضرة.

بين تجاوب المقولات التاريخية وتجاورها—المقولات الكبرى القادمة من شمال العالم الذي يفرضها وجنوب العالم الذي يقاومها—يعرف الفلسطينيون أن "الشعوب السعيدة هي شعوب بلا تاريخ." وبين الميت العاري والموت المستباح في غزة وعموم فلسطين، يختبر الفلسطينيون على أجسادهم عبث النزال الدامي بين شِقَّي المقولة القديمة: "تعيسة بلاد لا أبطال فيها، تعيسة بلاد بحاجة إلى أبطال!" صحيح أن الفلسطينيين لا يرغبون في إعادة تعريف البطولة، ولكنهم لن يمنحوا الأبطال تقاعداً مبكراً يتواطؤ مع انهيار منظومة الأخلاق الإنسانية في عالم ما زال يسمح باستمرار الإبادة الجماعية التي تشاهدها الجموع ببث حي للموت المباشر. من هنا تحديداً تنبثق إرادة الحرية، لا رغبةً في "الغناء لأوقات الظلام،" ولا رهبةً من فشل "إبقاء جذوة الأمل مشتعلة،" بل إصراراً على تذكير الإنسانية، في

لحظتها المريضة، بإنسانيَّتها التي تتموضع فلسطين اليوم في القلب من ضميرها الذي مسَّه الخدر.

ولأن درس الجنوب هو تمرين وجودي على الصبر المفضي إلى الحقيقة والأوجه الغائبة، تنطلق **الجنوب** ناذرة نفسها لجعل وعي مجتمعات المعاناة والمقاومة في فلسطين—موطن الفداء القديم والخلاص المقيم—والجوار العربي والجنوب العالمي... بوصلة تحرس وعي الجنوبيين من خلخلة الجهات مهما تنوَّعت ألوان قاطنيها. ليس الجنوب موئل الجنوبيين وحسب، بل هو هوية حضارية تعمرها قيم النضال من أجل الحرية والتحرر والتحرير... هوية يصونها تعاضد الأخوة، ومناصرة الأشقاء، وتضامن الرفاق. فعلى امتداد التاريخ، لم تمثِّل قيم التعاضد والمناصرة والتضامن تعاطف الإنسان مع الإنسان وحسب، بل شكَّلت مقولة نضالية عابرة للحدود والهويات في قارات العالم المأهولة في وحدة المقهورين والمضطهَدين على البِّر في وجه جبروت الظلمة والظلم. وفي هذه الوحدة، التي اجتذبت المغلوبين لمواجهة الغالبين، الذين لا يكفُّون عن الانتصار، صارت الثقافة ممارسة سياسية خالصة لأنها تحسن التفريق بين الصديق والعدو على مفرزة الأخلاق، ولم تكن السياسة ممارسة ثقافية، إلا لاماماً، لأنها لا تفرِّق بين الصديق والعدو إلا على مفرزة المصلحة.

من هنا، صارت الثقافة أسلوب الدفاع عن الحق في الوجود قبل أن تكون منبر التذكير بواجب المقاومة دفاعاً عن الوجود. ومن هنا، كانت الضرورة الملحة لوجود مجلة تحرس كلام المدافعين عن قضية العدالة والحرية الأولى في العالم - القضية الفلسطينية - من الخلخلة في ظل الغلبة البيِّنة لفائض القوة على فائض الحق. ومن هنا... أيضاً، جاءت **الجنوب** - المجلة، لا لتسعى إلى تدشين نصاب ثقافي بارد، في إهاب فكر أجرد ومناهج مجردة ونظريات جرداء، بل لبعث سجال ثقافي-سياسي-معرفي من شأنه خلق كتلة اجتماعية فاعلة مهجوسة بسؤال الجوهر وسؤال الوجود الجماعيين لحركة تحرر وطني وإنساني تكافح ضد الإمبريالية العالمية والاستعمار الصهيوني والوساطة المستعمَرية التي لا تكفُّ عن محاولاتها التقويضية لاستهداف أصحاب البلاد جوهراً ووجوداً، ورضِّ ثقافتهم الباقية رغم كل شيء. ولعل من شأن ولادة **الجنوب** في هذه اللحظة التاريخية الخانقة أن يسهم في رسم معالم مسار الزمن الفلسطيني التحرري الجريح (وحاضنته الزمن المشرقي) في مواجهة الزمن الصهيوني الاستعماري (وحاضنته الزمن الغربي) الذي لا يشكِّل إلا كسراً عابراً في جسد فلسطين (أرضاً وشعباً وحكاية)، وجوارها العربي، وعمقها الجنوب عالمي.

وفي مواجهة قوى الإمبريالية والاستعمار والوكالة، المولودة كفَّارة لخطيئة أصلية... بعكس مسار التاريخ، لم يعد الجنوب، اليوم، جهة، ولا حدّاً جغرافياً، ولا تحديداً ثقافياً، بل صار موقفاً أخلاقياً من قضية الحرية، حرية الإنسان-الفرد وحرية الإنسانية-الجماعة، في فلسطين وعلى امتداد العالم. وفي هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، يصير الجنوب جنوب القلب وجنوب الروح وجنوب الفكرة، حيث "الحقيقة والأوجه الغائبة"، التي قضت في رحلتها النبيلة، محمولة على رياح كل جنوب وعلى هدى كل ضوء مشرقي نحو القدس. وفي هذه اللحظة، صار الجنوبيون، أنَّى كانوا، ملزمين بالدفاع عن إنسانية الإنسان ومعنى الإنسانية في مسيرة جنوبية الوجهة على خطى الثوريين المشرقيين من اللَّقاحيين والنَّوابت والفدائيين الذين مُلكهم المعرفة ومَلكوتهم اليقين بحتمية الوصول.

ليس هذا الخطاب كلاماً وراء الكلام، ولكنه شعاع من أمل الحالمين بمساحة سجال نبيل تكون مرآة معرفية صقيلة لفكرة الحرية والتحرر والتحرير دفاعاً عن هويتنا الوطنية والقومية والإنسانية. وهي بؤرة لمساحة مفتوحة ترعى إرادة الحياة والحق في المقاومة للدفاع عنها في وجه إرادة الموت وباطل آلة التدمير والتوحُّش، ومركز بعث دائم لاستيلاد ريح الصمود التي تحافظ على جذوة الأمل الباسل و"الحزن المقاتل" في وجه اليأس. إن عدم وجود منبر معرفي يحرس منجزات المشروع التحرري، يحتم ظهور مجلة لا لملء الفراغ، بل للإسهام في تحوله إلى مَلاء مُنتِج للمعنى المفقود الآخذ في التلاشي تحت ضربات الآلة العسكرية والمعرفية للعدو المتعدد. لن تتخذ **الجنوب** من التحرر شعاراً، بل نظريةً ممارِسة للنقد المزدوج للحداثات المكرَّسة، وما صدر عنها من موضوعيَّات وذاتيَّات مختلَقة، وما لحق به من سبل الارتداد والنمط والإعاقة، استشراقاً واستغراباً واستعراباً، وما تمَّت أيقنته من أخلاقيات وحساسيَّات وأطر نظرية ممركزة غربياً، وبالتالي صهيونياً. وفي مواجهة ذلك كله، تركن **الجنوب** إلى ذاكرة الروح والمعرفة المحاربة، لا للحيلولة دون أن يواصل المنتصرون انتصارهم وحسب، بل لتذكير المغلوبين، الذين فاتهم الانتصار بإمكانية الانتصار، والعمل معهم لاستعادة الثقة وشحن الوعي بإمكانيات تحديد نسابيَّات الشر وترسيم أخلاقيَّات المقاومة وتحديد سبل التحرر التي لا تخذل سالكيها.

من حيث النتاجات، لا شك أن ثمة وفرة من المجلات المتخصصة بلغات مختلفة، وأقلّها بالعربية، فيما يعرف بـ"الشأن الفلسطيني" و"الشأن الإسرائيلي"، اللذين صارا حقلين متناظرين تارةً ومتداخلين تارةً أخرى دون أي تحرُّز أخلاقي يباعد بين المستعمِر والمستعمَر، ومجلات أخرى مدَّت جسور الوصل الاستيهامي بين الحقلين ليصيرا حقلاً واحداً لا يفصل بين حدَّيه إلا شَرطة معترضة (لا على خطأ الوصل السافر وخطيئة النسيان، بل لتكريسهما)، والكثير من الملاحق اليومية والأسبوعية والشهرية والتقارير السنوية، والترجمات المنفلتة من عقالها وهي تخلط الزوان بالحنطة ولا تحتكم إلى سياسة ترجمية فاعلة. أما من حيث السياسات، فتحمل هذه المطبوعات أجندة المؤسسات التي تصدر عنها، سواء كانت رسمية أو حزبية أو أهلية، فترسم كل مطبوعة حدودها على قَدِّ المال السياسي الذي يبقيها على قيد الحياة التي تشبه الموت... موت الفكرة، وموت التفكير. وأما من حيث الممارسات، فلكل مطبوعة هيئة تحرير تُنتقَى بما يتوافق مع الخط السياسي الناظم للمؤسسة-المطبوعة، وتُحَدد سياسات التحكيم والتحرير والنشر تبعاً لذلك، احتواءً وإقصاءً، وتبقى بذلك سناً في دولاب المعرفة المهيمنة التي صارت قَدر التابعين ومقدارهم أو تكاد. ولتجاوز هذا التلف في العقل الجمعي، تعمل **الجنوب** على إعادة تعريف الحدود التخصصية وثغور المواجهة المعرفية بين المشروع التحرري والمشروع الاستعماري على نحو يتجاوز هذا العطب.

تُعنى **الجنوب** بالنتاجات والممارسات والسياسات المعرفية، في ميادين النظرية والمنهج والممارسة ذات العلاقة بالدراسات التحررية والبحث المحارب فلسطينياً وعربياً وعالمياً، مع تركيز خاص على قضايا الجنوب العالمي، والقضايا العابرة للجغرافيات السياسية، نحو مقاومة التطبيع والمقاطعة. وتركِّز **الجنوب**، بشكل خاص، على الصراع العربي-الصهيوني الذي تتموضع فيه فلسطين في موقع الصدارة. ونظراً لغياب مفهوم موحَّد للوطن والوطنية والمواطنة، على المستوى السياسي، تسعى **الجنوب** إلى تشكيل وطن معرفي لكتَّابها وقرَّائها عبر لغة نقدية منادِدَة تنوس بين التخصصي والعام، ومصطلحٍ

أصلاني يحرس أرض الفكرة من الخلخلة. لا تهدف **الجنوب**، وهي مجلة لا تُشرى ولا تُباع، إلى إلجام العوام عن الشأن العام عبر خطاب تخصصي سعيد بذاته ومُحيل إلى ذاته، بل تسعى إلى تدشين خطاب تحرري يصحح المفاهيم وهو يبدعها، ويتجاوز النخبوي وهو يدنيه من العام في إهاب نقد داخلي غايته التغيير. أما صيغة المجلة التداولية إلكترونياً، فتمنحها خاصية الإتاحة الشعبية لمن لا يتمكنون من احتياز المطبوع في حالة المجلات المكرَّسة، وتلك ميزة داعمة لإرادة التغيير من حيث نشر **الجنوب** وانتشارها في المجتمع، والجامعات، والمدارس، والمخيمات، والسجون لا طال بقاؤها.

النور يأتي من الشرق، والنار تأتي من الجنوب... أو هكذا قيل. أما الشمال والغرب، فجهات تقف اليوم أمام امتحان إنساني يلزم قاطنيها بالانحياز إلى خير نور الحياة وتجنيب الإنسانية شرَّ نار الموت... وأما **الجنوب** —المجلة فمحض بشارة قادمة من فلسطين، وهي تدرك أن أهلها منذورون للبقاء لأنهم "ملح الأرض، ونور العالم." صحيح أن فلسطين تنتظر العالم لإنهاء مظلمتها التي طالت وقد عزَّ الخلاص، ولكن العالم ينتظر فلسطين لترميم النظرية والمنهج والممارسة، وإنقاذ العالم من خراب الروح وانحسار الأخلاق.

عبد الرحيم الشيخ

خيران، الجنوب، 2025